علاقات عمر راسم مع رجالات الإصلاح في المشرق العربي

أة. إمخلاف أمال

قسم الحضارة- جامعة وهران

المقدمة:

إن دراستي هاته المتواضعة تهتم بالبحث في مسيرة علم من أعلام الإصلاح الجزائريين، ظهر مع بداية القرن العشرين، أي تزامن ظهوره مع قيام النهضة العربية وحركة التجديد الإسلامي، هو "عمر راسم" أو كما كان يوقع مقالاته الصحفية "**ابن منصور الصنهاجي**".

عمر راسم يعتبر من الرعيل الأول في ميدان الإصلاح والكفاح، كما يعتبر من أعمدة الصحافة في الجزائر مع بداية القرن العشرين، صاحب مجلة "الجزائر" التي صدرت سنة 1908 والناطقة باللغة العربية، وطنية الاتجاه، و صاحب صحيفة "ذو الفقار" الشهيرة والتي صدرت سنة 1914/1913.

هو عمر راسم بن علي بن سعيد بن محمد البجائي، من مواليد مدينة الجزائر سنة 1884، تعلم بكتاتيبها ثم اعتمد منذ صباه على أفكاره الإصلاحية الوطنية، معتنقا لمذهب الشيخ محمد عبده مناصرا له، له صلات واسعة بزعماء الإصلاح في الشرق والغرب.

عمر راسم شهير أيضا بخطه العربي الجميل، و مقدرته في رسم المنمنمات، تعرض للسجن أثناء الحرب العالمية الأولى سنة 1915 بتهمة التجسس لصالح الألمان، و بقي فيه إلى غاية سنة 1921 وأطلق سراحه بقانون العفو العام.

من أثاره:

- "تراجم علماء الجزائر" هو مخطوط هام درس فيه عمر راسم سير بعض الأعلام.

- مقالات عديدة بالعربية و الفرنسية في صحفه و صحف غيره تناولت عدة ميادين كالفن والسياسة والاجتماع....

توفي عمر راسم بالجزائر سنة 1959، قبل أن يرى استقلال بلاده التي طالما دافع عنها في مقالاته ورسوماته.

نحن أمام أحد رجال الفكر الإصلاحي الذين تأثروا بالثقافة العربية وتراثها العريق، وبنهضتها الحديثة في شتى الميادين الثقافية والأدبية و الفكرية، فعمر راسم من النوع الذي اهتم بالفكرة وتوصيلها بأسلوب صريح مباشر، وباهتمام باللغة من حيث مفرداتها ومن حيث أصالتها، وقدرتها على تبليغ الأفكار، بل والعناية ببعض خصائص الأساليب العربية والبيان العربي، دون اهتمام كبير بجمال التعبير وصياغته صياغة أدبية.

يغلب على كتابات عمر راسم الطابع الذهني و الروح الدينية الواضحة، و قليل من العناية بالجانب الفني والأدبي، فهي مقالات سياسية لما قبل الثورة يمكن إدراجها في ما يسمى بالأدب السياسي.

إذا عدنا إلى المقالات التي حررها في صحيفة "الحق الوهراني" لسنة 1912، نلاحظ ذلك التعبير الثائر الصارخ في غضب شديد يوجه للأغنياء والمترفين عتابا ولوما لانسلاخهم عن شخصيتهم وتأثرهم بالحضارة الأوروبية.

بعض المصادر تشير إلى أن مقالات عمر راسم، وإن كانت صريحة العبارة، فإن مستواها اللغوي كان ضعيفا، كما أنه مزدوج اللغة.

اختلفت وتنوعت مقالات عمر راسم من دينية واجتماعية وسياسية، فلقد تعرض في مقالاته لسياسة تجنيد الأهالي، كما كتب عن المجتمع والأخلاق، كتب عن الإسلام والمسلمين، كتب معارضا سياسة الإدارة الاستعمارية.

عمر راسم أول صحافي جزائري رفع القلم داعيا إلى الإصلاح الديني في حماس متوقد و جرأة كبيرة، ولشدة إعجابه بالشيخ محمد عبده، أغضب مشايخه وهو طالب بالمدرسة الثعالبية، وعندما انتصر لأراء محمد عبده الإصلاحية طردوه من المدرسة، لق عرف راسم بمراسه الشديد في حقل الإصلاح ثائرا على كل مظاهر الخمول والكسل والانحلال الخلقي، الناجمة عن الجهل والتقليد الأعمى للأوروبيين.

تعددت نشاطات راسم، فقد كان على صلة وثيقة بالصحافة التونسية، فمنذ سنة كان يكتب المقالات في عدة صحف، و كان يرسل بعض المقالات الإخبارية القصيرة لعدة جرائد.

تعددت مقالات راسم في الصحف الوطنية الناطقة بالعربية أو الفرنسية، كصحيفة "الحق الوهراني" سنة 1912، ومجلة "هنا الجزائر" 1954/ 1957 التابعة للإذاعة، وكتب في الصحف العربية التونسية والمغربية.

إنّ تجربة السجن التي قضاها راسم في سجن بربروس من 1915 إلى 1921 كانت قاسية عليه، لما سببته له من عذاب نفسي أثر عليه كثيرا، فبعد خروجه انصرف إلى الحياة الفنية و الرسم، و منح كل وقته للخط العربي ورسم المنمنمات، و لقد برز كثيرا في هذا المجال، ففي سنة 1931 أنشأت بمدينة الجزائر مدرسة لتعليم فن التصوير والزخرفة العربية والشرقية، فاختير هو وأخوه محمد راسم، ليدرسا فيها الخط العربي وفن الزخرفة والمنمنمات، وتخرج ع يديهما نخبة كبيرة من الرسامين.

❖ تأثير الشيخ محمد عبده:

عندما زار الشيخ محمد عبده الجزائر سنة 1903، كان سن عمر راسم 20 سنة.[1]

---

1 - محمد ناصر.- المقالة الصحفية الجزائرية (1900- 1930). الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. 1978. ص. 227.

اجتمع عمر راسم مع جمع من العلماء، بالشيخ محمد عبده في منزل مصطفى لكحل ببلكور، حيث استمع إلى الشيخ، عندما قرأ سورة العصر وفسرها[1].

الجدير بالذكر أن عمر راسم كانت تربطه صلات بالزعماء والمصلحين العرب المشارقة، وكان على تتبع دائم لحركة " الشبان المصريين"، و كانت له مراسلات عديدة مع الزعيم المصري محمد فريد وجدي ومصطفى كمال، والعديد من المصلحين كمحمد عبده وعبد العزيز جاويش[2].

كان عمر راسم على اطلاع بالنهضة الفكرية والسياسية، التي عرفتها مصر ثم تونس، وكان يتتبع حركة الجامعة الإسلامية عن طريق، المراسلات، الحج، والصحافة[3].

وتجدر الإشارة أنه التقى بالشيخ محمد عبده مع والده، في بيت عبد الحليم ابن سماية[4].

---

1 - شهادة عبد الرحمان الجيلالي للباحثة بمنزله بالعاصمة يوم الأربعاء 15 ديسمبر 2002.

2 - شهادة ابن أخت عمر راسم الفنان والرسام "علي خوجة" للباحثة بمنزله بالأبيار ديسمبر 2001.

3 Merad Ali.- Le réformisme musulman en Algérie. De 1925à 1940. Essai d'histoire religieuse et sociale. La Haye. Paris. P.312

4 - شهادة ابن أخت عمر راسم الفنان علي خوجة للباحثة يوم 16 مارس 2006.

وصل تأثير محمد عبده على عمر راسم، إلى درجة أن راسم لما أسس جريدته "ذو الفقار"، اتخذها منبرا للدعوة للإصلاح على الطريقة العبدوية، يدعو إلى أفكار الشيخ الإصلاحية في الجزائر ويعمل على نشرها[1]. كما جعل راسم من الشيخ عبده المدير الديني والروحي لجريدته[2]. لقد جاء في العدد الأول من جريدته "ذو الفقار"، أنها جريدة "عبدوية إصلاحية"[3].

وجاء في العدد الثالث من الجريدة بصورة الشيخ محمد عبده، التي رسمها بريشته وحلى بها جريدته[4].

نجد عمر راسم من خلال مقالاته وصحفه وأفكاره، أو الصحف التي كتب فيها وراسلها، منسجما مع التيار الإصلاحي، الذي ظهر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، في المشرق عموما، والدولة العثمانية على وجه خاص، و هو يوافق إلى حد كبير أراء المدرسة العبدوية، حتى أنه تنصر لأراء الشيخ عندما كان يدرس في المدرسة الثعالبية بالجزائر العاصمة[5].

---

1 - محمد ناصر.- المرجع السابق.ص. 16.

- أحمد باغلي – محمد راسم الجزائري . المؤسسة الوطنية للكتاب . الطبعة الرابعة . الجزائر .1984. ص .92 .

2 - محمد ناصر.- المرجع السابق.ص. 16.

3 - عمر راسم.- مقاصد الجريدة. جريدة "**ذو الفقار**". العدد الأول. 1913/10/05. ص 2.

4 - عمر راسم . – مدير الجريدة الديني . " **ذو الفقار** " . العدد 3 . 1914/07/14 . ص . 8 .

5 - محمد بن العابد الجيلالي . – تقويم الأخلاق . يناير 1927 . ص .47 .

- أو قاسم سعد الله . – أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر . الجزء الثاني . بيروت . 1990 . ص . 123 .

غير أن عمر راسم خالف محمد عبده في بعض الآراء السياسية، فهو لم يخف معارضته للشيخ، فيما يتعلق بقضية فلسطين ونظرته إلى الاستعمار الانجليزي في مصر[1].

كما كان لراسم موقف معارض لآراء محمد عبده، فيما يخص الاستعمار الفرنسي بشمال إفريقيا، فعند زيارته لتونس والجزائر سنة 1903، ترك عبده بعض النصائح الهامة لعلماء البلدين تتمثل في:

- الجد في تحصيل العلوم الدينية والدنيوية من طرقها القريبة.
- الجد في الكسب وعمران البلاد، من الطرق المشروعة مع الاقتصاد في المعيشة[2].

وفي نفس الوقت طالب من أبناء وعلماء البلدين، مسالمة الحكومة الفرنسية، وترك الاشتغال بالسياسة وضرورة مساعدة الحكومة الفرنسية، حيث يقول:"**نحن نعتقد أن الطريقة الوحيدة في حسن المعاملة من فرنسا، هو إعراض الجزائريين والتونسيين عن السياسة إلى العلم، الذي ينير العقول ويشغل عن الفضول**"[3].

---

1 - محمد ناصر.- المرجع السابق. ص. 32.33.

2 - رشيد رضا.- تاريخ الأستاذ الإمام. الجزء الأول. مجلة المنار. القاهرة. 1931. ص. 872.

3 - رشيد رضا.- المرجع السابق. ص.872.

- محمد قنانش.- المواقف السياسية بين الإصلاح والوطنية. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. المكتبة الشعبية.الجزائر .1985 . ص 58.

وللزيادة في الإيضاح، ينقل الكاتب قطعتين، الأولى من خطاب الوالي العام الفرنسي بالجزائر، قبل الحرب العالمية الأولى، السيد LUTAUX، في البرلمان الفرنسي، حول هجرة الجزائريين إلى سوريا حيث صرح بأن ثلاث مفاتي مصريين، أفتوا بأن المسلمين يمكنهم أن يعيشوا تحت حكم كفار، قال وأخيرا هناك مفتي من القاهرة و هو محمد عبده، قد زار الجزائر، و قد حصلنا منه على فتوى مهمة للغاية، وقد حاول أن يظهر لمسلمي الجزائر، أن أرض الجزائر ليست محتلة بأيدي الكفار، لأن المسيحيين أصحاب كتاب يدعى الإنجيل[1].

أما الثانية فهي لكاتب جزائري، وجدت في أوراقه، وهو السيد عمر راسم جاء فيها مايلي:

"وهكذا كان سائر نبغاء الشرق، مسموما بداء الماصونية الذي قتله، وقتل همم رجاله، ... فإنهم كانوا جلهم يقدمون طاعة أوامر الماصونية على طاعة الله، ولا جرم أن نقول أن الشيخ محمد عبده منهم، لأنه كان يفضل اللورد كرومر على عباس حلمي وعلى السلطان عبد الحميد، ويرضى أن تكون مصر انجليزية و لا تكون مستقلة عثمانية ، وأنه كما صرح لنا بإعتقاده أنّ إنجلترا ، دولة البر

Merad Ali.- Regards sur l'enseignement des musulmans en Algérie (1880-1960)..p.99.

1 - محمد قنانش.- نفس المرجع. ص. 60.

والبحر ، ذات القوة والبطش ، وأنّ المسلمين ضعفاء لا يمكنهم مقاومة بريطانيا العظمى[1]".

وأخيرا من مراسلة خاصة من الإمام محمد عبده إلى الشيخ عبد الحليم بن سماية سنة 1903 : " **وإني** وإن كنت على ثقة من كمال عقلك ومعرفتك ، بما إليه حاجة المسلمين اليوم ، فإني لا أجد ممدوحة عن التصريح بالتحذير من النظر في سياسة الحكومة ، وغيرها من الحكومات ومن الكلام في ذلك ، فإنّ هذا الموضوع كبير الخطر قريب الضرر "[2] .

❖- **تأثير شكيب أرسلان:**

كثيرا ما تردد اسم الأمير شكيب أرسلان، في تاريخ الحركة الوطنية المغاربية بشكل عام، والجزائرية بشكل خاص، و هذا يدعونا إلى التساؤل حول ما علاقة هذا الرجل بحركات التحرير بالمغرب العربي، وبالخصوص ما علاقته بزعماء هذه المنطقة ومصلحيها ، ومن بينهم عمر راسم[3] .

---

1 - محمد قنانش.- نفس المرجع. ص. 61.

2 Merad Ali.- l'enseignement politique de mohamed abduh aux algériens .1903 .inoriont .7eme année . 4eme trimestre .paris. 1963. n°28 .p.p.p. 101.102.103.

3 - أبو القاسم سعد الله . – أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر . الجزء الرابع . الطبعة الأولى . دار الغرب الإسلامي . لبنان .1996. ص .114.

عندما ندرس حياة شكيب أرسلان نعلم أن من مشايخه، الإمام محمد عبده، أثناء نفي هذا الأخير إلى بيروت سنة 1886، وكتب أرسلان في صحف مصرية كالأهرام والمؤيد، وشارك في حرب طرابلس سنة 1911، إلى جانب الدولة العثمانية، تحت لواء لجنة الاتحاد والترقي، ودعم موقف تركيا خلال الحرب العالمية الأولى، وبعد الحرب استقر بلوزان ثم بجنيف بسويسرا[1].

تذكر المصادر أن شكيب أرسلان زار تونس ودخلها سنة 1912، أثناء الحرب ضد إيطاليا، ولقد جاء لجمع المواد الغذائية من تونس، لفائدة الجيش العثماني[2].

أما علاقة أرسلان بالجزائر فلم تذكر المصادر أنه زارها، لكنه كانت له علاقات متينة مع الجزائريين، أمثال عائلة الأمير عبد القادر بالشام، وكان يتتبع نشاط أبنائه وأحفاده في القضايا السياسية المعاصرة، والتقى مع بعضهم مثل الأمير علي ابن الأمير عبد القادر، الأمير محي الدين، والأمير عبد المالك[3].

---

1 - ليفي بروفنصال.- الأمير شكيب أرسلان (1869- 1946). كراسات الشرق المعاصر. 1948. ص. 9- 10.
- جوليات بسيس.- المجلة التاريخية. 1978. ص. 526.

2 - لوثر ب ستودار.- حاضر العالم الإسلامي. تعليق شكيب أرسلان. الطبعة الرابعة. 1972. ص. 312.

3 - لوثر ب ستودار.- المرجع السابق. ص. 172- 173.

كما نجد أن شكيب أرسلان كان على صلة بالحركة الوطنية الجزائرية منذ الحرب العالمية الأولى، وكان على الاطلاع بالمؤلفات التي كتبها الجزائريون أمثال، إسماعيل حامد[1].

وفي فترة العشرينيات، توطدت الصلة بين أرسلان و أعيان الكتاب الجزائريين، من أمثال أحمد توفيق المدني الذي يقول أنه كان على صلة بشكيب أرسلان منذ سنة 1923، ويقول أيضا أنه كان يراسل أرسلان أدبيا وسياسيا واجتماعيا طوال سنوات، يزوده فيها بمعلومات عن المغرب العربي ومشاكله السياسية ومقاومته للاستعمار[2].

كانت صلة أرسلان بالجزائر وشمال إفريقيا، قد مرت بعدة مراحل، قبل أن تتبلور وتصبح إلتزاما بقضية واندماجا في مصير المنطقة، بدأت بحرب طرابلس والاختلاط بالجزائريين والتونسيين فيها، مرورا بعلاقته بعائلة الأمير عبد القادر[3].

أما علاقة شكيب أرسلان بالأمير خالد، فمن المحتمل أن رجلان التقيا بالقاهرة أو في القدس، أي بعد نفي الأمير خالد، أما سوريا فلم يلتقيا فيها، لأن الأمير خالد كان قد توفي في فاتح سنة 1936، ولم يزرها أرسلان إلا بعد أكثر من سنة من تاريخ الوفاة[4].

---

1 - لوثر ب ستودار.- المرجع السابق. ص. 211.

2 - أحمد توفيق المدني.- أرسلان بطل الجهاد في كل مكان. مجلة الثقافة عدد 76. جويلية، أوت، 1983. ص.74.

3 - أبو القاسم سعد الله.- المرجع السابق. ص 120

4- أبو القاسم سعد الله.- المرجع السابق. ص 120

كانت لأرسلان، مراسلات أخرى مع شخصيات جزائرية، غير المدني، كالطيب العقبي، الزواوي، الإمام ابن باديس، أبي اليقظان، وميصالي الحاج[1].

أما فيما يخص لة عمر راسم بشكيب أرسلان، فلقد كانت هناك مراسلات بين الرجلين، خلال العشرينات والثلاثينات، لا سيما تلك الرسالة* التي وجهها الزعيم الإسلامي شكيب أرسلان، ردا على رسالة راسم يعقب فيها عن موقف المؤتمر الإسلامي المنعقد سنة 1931 بالقدس، والذي أعاب فيه راسم، أنه لم يعالج قضية الخلافة الإسلامية[2].

وتجدر الإشارة إلى أن عمر راسم، أعجب كثيرا وتأثر بزعماء العالم العربي، سيما شكيب أرسلان، الذي لم تتوقف صلة به إلى حد الإعجاب والقراءة، بل تجاوزها إلى تنسيق العمل الوطني معه، عن طريق المراسلة، فيما يخص الخلافة الإسلامية ومصيرها، وحول قضية فلسطين، خاصة أن أرسلان كان قد أسس وأنشأ صحيفة "الأمة العربية" « La Nation Arabe » باللغة الفرنسية سنة 1930، وكانت هذه الجريدة لسان حال الوفد الفلسطيني – السوري لدى عصبة الأمم المتحدة لخدمة مصالح البلاد العربية خاصة المشرقية، لكنها ستتطور فيما بعد لتصبح منبرا رفيعا لقضية الجزائر.

1- أحمد توفيق المدني.- كتاب الجزائر. دار الكتاب الطبعة الأولى. الجزائر 1931. ص. 90.

* الرسالة وثيقة من أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية بتاريخ 1931/12/28. جنيف.

2- محمد ناصر.- عمر راسم المصلح الثائر. ص. 32.